

من مذكرات قاضي شرعي

## ١ - من التعليم إلى القضاء للأستاذ علي الطنطاوي

يسألني كثير من الإخوان ، كيف وجدت القضاء ؟ إلى ووجدت  
القضاء راحة جسم وتعب بال ، وعلو منزلة وقلة مال ، واكتساب  
علم وازدياد أعداء ، وجملاً كبيراً نسأل الله السلامة من سوء عاقبته :  
أما أنه ( راحة جسم ) فذلك أتى كنت في التعليم أتكم  
ولا أسمع ، فصرت الآن أسمع أكثر مما أتكم . وكنت لا أقدر  
على السكوت لأنني إن سكنت تكلم الغاريت ( أعني التلاميذ ) ،  
حتى أنه ربما أصابني أحياناً أذى في حلق فجعلني أغص بالماء  
الزلال ، وأشرق بالريق ، وأجد للكلمة الواحدة انطلق بها مثل  
حزة السكين ثم لا أستطيع الصمت دقيقة ثلاث من يدي  
طرف السلكة فينفرط القعد ويبطل النظام . وكنت أدخله  
الصف ( الفصل ) وأخرج منه خمس مرات أو ستاً في اليوم  
ولا أقعد على كرسي لثلاثي الشيطان مني غفلة فيعطس في مناخر  
التلاميذ فيحدثوا في الفصل حدثاً ، وبأما أكثر أصدانهم وأيسرها  
ضجة كضجة حمام اتقطع مؤه كما يقول الشاميون في أمثالهم العلمية .  
ثم إذا خرجت من الصف لأستريح راحة ما بين المدرسين ( الحستين )  
لجفتي طائفة من الطلاب يسألوني فأقف لهم حتى ينفخ إسرافيل  
المدرسة في صورته فيحشر الطلاب والمدرسون إلى تار العمل .  
فأفضل آخر النهار بأوله وأنا قائم على أمشاط رجلي ولسان لا يكف  
عن الوردان في في ... فنصوت الآن ولا عمل لي إلا التصود على  
كرسي للقضاء أقول الكلمة بعد الكلمة وأسمع سيلاً من الكلام  
مما له موقع أو ليس له مكان ، وإلا كتابة القرارات ( أي للمجلات  
في عرف الفقهاء ) ، وقد كفاني الكاتب ( أحمد ) الله فمأله  
كل ما سوى ذلك من الأعمال ، وما ينقص علي هنة الراحة  
إلا تحشية قل اللسان من كثرة الصمت فلا ينطلق بعد كما كان  
ينطلق ، وإن كان ذلك نعمة ترجى ، وإن كان لساني هو مصدر  
أذاي ومن الخير لي أن يتقل أو يكمل

أما ( تعب البال ) فلأنني أحمل على عاتقي حقوق الناس ،  
وأحكم في الأعراض وهي ( لغير أهل البرودة ) أثن من المال

وأغلي ، فإذا قت أو قصت لم أزل مفكراً في هذه القضية وتلك  
السوى ، لا لصورة فيها أو تمقيد ، فطريق القانون واضح لمن  
كان أكبر همه ظاهر القانون ، وكان دينه عبادة حروفه ،  
بل لأنفذ من خلال الفكر إلى مقصد القوانين وهو إقامة العدل .

فأما أفكر لأعرف الحق من البطل ، وأنصر عن المتقاضين ثياب  
التصنع والراء لتبدو حقاقتهم عارية ، وما ذلك بالأمر اليسير

ولا المطلب الهين ، وإذا كنت قد وصلت مرة بالقراسة في لحظة  
خاطفة إلى ما لا يوصل إليه بمرافعة شهود فنذلك من فضل الله ،

بيد أنه لا يدوم ، ولا بد من الرجوع إلى الحكم بالشهادات التي  
قد يعلم القاضي أنها شهادات الزور ، وأن الشهود فساق لا عدالة

لهم ولا قبل من مثلهم شهادة ، وكانت القرائن تقطع بكتبها  
- والقرائن والأمارات من أسباب الحكم - كما يتبين ذلك

ابن قيم للدرسة الجوزية<sup>(١)</sup> في كتابه الجليل أعلام الموقعين ،  
ولكن لا سبيل لنا إلى الأخذ بها إلا أن نتظر وزارة العدل

في دمشق في الاقتراح الذي رفعت إليها في هذا الموضوع وتمتحنه  
أساساً لإصلاح شامل يخص الناس من شهود الزور الذين

صارت لهم جماعات ومهاتب وأجور مسخرة ودخل فيهم من يتتقد  
الناظر إليه أنه من الأولياء ، ويجده مباحته من العلماء ، وهذا شر

استطار شره ، وعم الأنام خيره ، وشغلهم ضرره - فكيف يبدأ  
بال من يظن على ظنه أو هو يعلم فساد البيئته ثم يضطر إلى الحكم بها؟

هنا وقد نجاني الله بما ركب في طيبي من الخلة في الخلق والشدة  
في الحق من منغصات القضاء ، من الوساطات والالتباسات والمهاديات

والرشوات والولائم والدعوات ، وسلمني من ذلك كله أي لا أعرف  
في الحق لطفاً ولا مجاملة ولا خجلاً ولا فرقاً وأرجو دوام ذلك .

أما ( علو التركة ) فلأن لاسم القاضي دون الحاكم المدني  
وإن علت رتبته وزادت وظيفته ، له في الأسماع رتبة إكبار ،

وفي القلوب صورة إعظام ، وله هيبة وله جلال ، خلق ذلك المجد  
عليه أولئك الأبطال نجوم فلك العدل ، ودراريه المهاديات ،

أفئذ الدهر وأبكار الزمان ، الذين يحق لنا أن نفاخر بهم أم  
الإنس والجن ، وأن نجعل قضاءنا بهم أول ما نعقد عليه الخناصر

إذا عددنا الفاجر ، وما زال قضاء كل أمة أول مفاخرها ، قضائنا  
وغيره في السانية

(١) الجوزية بجزوار دار آل العظم في البصرة دمشق وقد جددت  
بناها جمعية الأساقفة الخيرية ومدرسة ابن القيم لله كان يرضى فيها هي  
كما أظن التي في مندر الحاضرة ( الحضرية ) بدمشق . وبغيره في السانية  
ينسحق مزوف رحمه الله .

ولا الآيات ، غير أنها في حفظ المسائل ومواطن وجودها من العجائب . وما أعهد أني نسيت مسألة قرأتها أو سمعتها ، وما أعهد أني تعرفت بإنسان وحفظت اسمه إلا بعد الملاحظة الشديدة الزمن الأطول ، ثم إلى أنسى اسمه إذا فارقته مع أني لا أنسى الوجه ولو رأيته مرة واحدة ، ولا أعرف تمليل هذا الأمر

وأما (ازدياد أعداء) القاضى العادل القائم بإحقاق الحق ، والموظف الزهيه المستقيم ، فشيء مشاهد مسلم به لا يحتاج إلى بيان . وإذا كان قد روى عن أبي ذر أنه قال ( كلمة الحق ما تركت لي صاحباً ) وذلك على عهد الصحابة وفي أفضل القرون ، فما بالك بعصرنا ؟ وماذا يقول القاضى وما قضية تعرض عليه إلا وفيها اتقان يقضى لأحدهما على الآخر ، فنقضى عليه جله عندهم له ما عندنا النادر الأندر من الناس الذى رضى بالحق ولو كان على نفسه . وأكبر المصيبة أنه قد يكون البطل القضى عليه ، أو الشفيح الردودة شفاعته كبيراً في قومه ، وجبهاً في بلده ، فإذا أؤتمت ما يلزمه شرعاً أثار عليك الشعب والحكومة ، واقترى عليك الفرسى ، وأساء فيك رأى رؤسائك فأذكوك وضروك وأخروا ترفيمك . والمعروف عند أولى الأمر أن الموظف الصالح هو الذى لا يسخط عليه أحداً ولا يثير مشكلة ، ولا يكون ذلك لقاض عادل وموظف زهيه ، وإنما يكون لنافق في جيبه ألف وجه في كل وجه مائة لسان ، يقابل كلا بالوجه الذى يجبه ، ويخاطبه باللسان الذى يرضيه وخلاصة القول أن القضاء (محل تهليل) وهم طويل ، ولو أن الله أغثناني عنه وكتب لي أن أعيش بقلبي ومؤلفاتي ، أو لو أني رزقت مرتبة أهل الورع لما أقدمت عليه ولآثرت التعليم فهو أسلم ، ولكنني وقت والله لا يكلف نفساً إلا وسعها . وإن رسي وغاية جهدي العزم الصحيح وبالله التوفيق على أن لا أحكم في قضية مما لم أعرف حكم الشرع فيها على مقدار طاقتي فأسير عليه ، وأن لا أتمد الزين والظلم تمسداً ، ولا أنوى الليل مع أحد الخصمين ، وأن لا تأخذني في الحق رغبة صديق ولا رهبة ذي سلطان . أما الخطأ فلا أملك دفعه إلا بالانتباه ، أما الجهل فلا أقدر معه إلا على التعلم والسؤال

هذا وقد فسروا حديث القاضى والقاضيين أن القاضيين اللذين في النار هما قاض يقضى بالجور وقاض يقضى بالجهل . ونحن نهال الله لنا ولكل محب للحق أن يوقفنا إلى اتباع الحق ، وأن يعلمنا ما يتفهمنا ويرزقنا العمل بما علمنا ويزيدنا علماً .

الأولون شريح وإياس وشريك وأبو يوسف والمزبن عبد السلام ومنذر بن سعيد ومن أذكر الآن ومن لا أذكر ممن يقصر عنه المد ، ويضيق الحصر .

ولو لا أني عامل على تأليف محاضرة واقية بهذا الغرض ولا يجمل بي إذاعتها بالنشر قبل نشرها بالتلاوة لأفضت في هذا الموضوع إضافة من وجد مجال القول واسماً ، والمقول جديداً مسعفاً ، والسامع مصنياً متشوقاً متلهفاً - لذلك يعظم الناس اسم القاضى ، لأنهم يذكرون به هؤلاء وأمثالهم ، وعهداً رحم الله ذلك العهد ، كان فيه القاضى قاضياً في كل خصومة بشرع الله ، حاكماً بما أنزل . لم يكن المسلمون يهجررون فيه جواهرهم ولآلهم بلخرجات يستجدونها من أيدي أشعة بها لأنها لا تملك غيرها ، ولا يدعون شرع أحكم الحاكمين لشرع بشر من ماء وطين ، وكان من مشاغل علمائهم البحث في الحسن والتبجح هل هما شرعيان أو عقليان وكثر في ذلك الكلام ، فلما صرنا إلى هذه الأيام ذهب ذلك الخصاص وحل مكانه الوائم . واصطلح أهل عصرنا من الناشئة والشبان على أن الحسن ما حسنه (أولئك ...) والتبجح ما تبجحوه ، وارتضينا كلنا هذه النتيجة التي انتهينا إليها ، وصممنا الوقوف عليها ، وسكن الجدال فلا قيل ولا قال ، وكفى الله (للؤمنين) القتال ، والحمد لله على (كل) حال

وأما (قوة المال) فلأن أجر القاضى الشرعى في بلادنا أى مرتبه قليل قليل ، وهو أدنى من سائر الحكام المدنيين ؛ مع أنه يشترط فيه إجازة (ليسانس) الحقوق ، والفوز في الامتحان الملقى ، وسبق الاشتغال مدة في المحاماة ... وهذا حديث له مكان آخر .

وأما (اكتساب العلم) فهو النعمة المفردة بين نعم القضاء المتعددة ، اللهم بعد نعمة الثواب إذا كان الله يكتبه لقصر مثلي لا يستحقه بعمله ولم تصف له نيته ولم يتجرد بعد عن حب الشهرة والجاه ، وإن ضيعت رغبته فيما وهانا عليه - إن اللطالمة هي نعمة هذه الحقنة في المهنة ، ولقد كنت أطلع دائماً وأنا معلم ، بل إلى لا أعرف أنه صر على يوم واحد منذ عقلت إلى اليوم لم أقرأ فيه شيئاً ، غير أني استفتت من القضاء الأنايس بكتب الفقه والاستتاع بها مثل استمتاعي بكتب الأدب أو قريباً منه .

وعندى مجموعة منها صالحة إذا أنا استمررت على النظر فيها رجوت أن أكون يوماً من الأيام من أوعية هذا العلم . ذلك لأنني أدأب على العمارة ولا يمتنى من السؤال عما لا أعرف حياء ولا كبر ؛ ولأن لي بحمد الله ذاكرة لا تمسك التصريح بحروفها ولا الأرقام